

انتخابات ديسمبر.. الأهم في تاريخ المملكة المتحدة المعاصر

تصدّع في جدار أحد أكثر الأنظمة الحزبية استقرارا في العالم



لأول مرة منذ نحو قرن من الزمن، تجري بريطانيا انتخابات عامة في شهر ديسمبر، وذلك بعد حصول رئيس الوزراء بوريس جونسون على موافقة النواب في مجلس العموم على إجراء انتخابات مبكرة في مسعى للخروج من مأزق بريكتست. وتأتي هذه الانتخابات التاريخية في واحد من أكثر المناخات السياسية المشحونة التي يمكن لأي شخص تذكرها. ووفق الخبراء، كل شيء تقريبا حول هذا التصويت غير عادي ولا يمكن التنبؤ به.

لندن - بعد مرور حوالي ثلاث سنوات على تصويت البريطانيين لصالح الخروج من الاتحاد الأوروبي، يبقى موعد المغادرة النهائي وشروطه غير واضحين. لكن الواضح أن هذه السنوات القليلة كانت كافية لتقسيم البلاد سياسيا ويمكن أن تجعل المملكة المتحدة "مجرد اسم"، على حد تعبير غوردون براون، رئيس الوزراء البريطاني السابق، الذي اعتبر أن الانتخابات التي ستشهدها البلاد في ديسمبر المقبل تهدد بتقسيمها بشكل أكبر، مع تصاعد الكراهية إلى جانب الشعوبيات المتنافسة.

وتجري بريطانيا انتخابات عامة في 12 ديسمبر 2019 لاختيار 650 نائبا جديدا في البرلمان من أجل تشكيل حكومة جديدة. وستكون أولى مهام النواب الجدد البت في ما إذا كانت البلاد ستخرج من عضوية الاتحاد الأوروبي وكيفية تحقيق ذلك وتوقيته.

لكن، لن تؤثر نتائج الانتخابات على بريكتست فقط، بل ستؤثر أيضا على احتمال إجراء استفتاء ثان على عضوية الاتحاد الأوروبي، وكذلك على استفتاء استقلال ثان في اسكتلندا، وكذلك على السياسة الخارجية والأمنية لبريطانيا، وفي النهاية، على مكانتها في النظام الدولي ككل.

من هنا، يصف الباحث في المعهد الملكي البريطاني للسياسات الخارجية (تشانام هوس)، ماثيو غودوين، هذه الانتخابات بأنها الأهم في تاريخ بريطانيا المعاصر. وقال عنها مساعد وزير الخارجية الأميركي لشؤون الشرق الأدنى، ديفيد شينكر، إنها يوم الحساب لواحدة من أقدم الديمقراطيات في العالم؛ فيما كتب غوردون براون، في صحيفة الغارديان، محذرا من أن الانتخابات تخاطر بتقسيم البلاد بشكل أكبر، وعلى السياسيين معالجة الفجوة قبل فوات الأوان.

العقل والمخاطفون في مواجهة أحزاب صاعدة

تصويت "البقاء"، وفق دراسة تشاتام هوس. ويقود هذا الوضع غودوين إلى الحديث عن عامل آخر يجعل الانتخابات غير متوقعة، وهو التقلب. حيث تعد هذه الانتخابات الخامسة على مستوى البلاد خلال أربع سنوات فقط. وبعد الانتخابات العامة لعام 2015، واستفتاء الاتحاد الأوروبي لعام 2016، والانتخابات العامة لعام 2017، والانتخابات البرلمانية الأوروبية لعام 2019، أصبح النظام السياسي والناخبون البريطانيون في حالة تقلب مستمر. وعلى طول الطريق، قام عدد كبير من الناخبين بإعادة تقييم ولائهم.

إلا أنه يجب أن نتذكر أن ما يميز الجيل الحالي من قادة الأحزاب في بريطانيا هو أنهم لا يتمتعون بشعبية". وتكشف بيانات جمعتها شركة إيسوس موري أنه في حين أن جونسون يسجل أدنى التصنيفات لأي رئيس وزراء جديد، فإن جيريمي كوربين من حزب العمال يسجل أدنى تصنيفات لأي زعيم معارض.

تحديات للأحزاب التقليدية

يؤيد ماثيو غودوين رؤية غوردون براون حول الانقسام، مشيرا إلى أنه من أبرز مفارقات خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي تحول أحد أكثر الأنظمة الحزبية استقرارا في العالم إلى سياق من أربعة أحزاب، في ظل تشكيل حزب الديمقراطيين الأحرار المعارض لخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي وحزب الديمقراطيين الأحرار، الذين يعدون في الاتحاد الأوروبي تحديا خطيرا للحزبين الرئيسيين.

ويستشهد بارقام استطلاع آخر للرأي جاء فيه أن حزبي العمال والمخاطفين لا يجذبان سوى 61 بالمئة من إجمالي الأصوات. وقد تحول عدد كبير من الناخبين الذين صوتوا لصالح حزب العمال في انتخابات 2017، أي واحد من كل أربعة، إلى التصويت لصالح حزب الديمقراطيين الأحرار، الذين يعدون بإلغاء المادة 50 و"إلغاء خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي".

وبالتالي، سيؤدي هذا الانقسام في التصويت إلى احتمال ظهور نتائج غير متوقعة على مستوى الدوائر الانتخابية. وفي الطرف الآخر من سباق الأحزاب، يتصارع حزب المحافظين في ظل مواجهته تهديدا ماثلا ولكنه أقل خطورة. حيث يجذب نايجل فاراج وحزب البريكتست حوالي واحد من كل عشرة أشخاص صوتوا لصالح حزب المحافظين في عام 2017، مما سيجعل مهمة بوريس جونسون المنتهية في الاستيلاء على مقاعد حزب العمال المؤيدة لخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، أصعب.

ويمكن التنبؤ قليلا بما سيحدث في المرحلة القادمة من خلال تصنيفات القيادة، حيث في حين أن 80 بالمئة من الناخبين في حزب البريكتست يفضلون جونسون عن كوربين، فإن 25 بالمئة فقط من ناخبي حزب الديمقراطيين الأحرار يفضلون كوربين عن جونسون. وقد تكون محاولة جونسون لدمج تصويت "المغادرة" أسهل من محاولة كوربين لدمج

ويمكن أن تعقد الانتخابات المبكرة الأمور أكثر. ويشير ماثيو غودوين إلى أنه منذ أن صوت أغلب النواب على إجراء الانتخابات، حقق حزب المحافظين نسبة تصويت قدرها 38 بالمئة، وحزب العمال المعارض 27 بالمئة، والديمقراطيون الأحرار 16 بالمئة، وحزب البريكتست 10 بالمئة، والخضر 4 بالمئة، والحزب القومي الاسكتلندي 3 بالمئة.

ويمكن أن يشير جونسون أيضا إلى مقاييس أخرى موالية لحزبه. حيث عندما يسأل الناخبون عن سبب "أفضل رئيس للوزراء"، تقول نسبة قدرها 43 بالمئة من الناخبين جونسون، بينما تختار أقلية صغيرة (20 بالمئة) زعيم حزب العمال، جيريمي كوربين.

وتشير استطلاعات الرأي أيضا إلى أن جونسون، على وجه العموم، اكتسب ثقة لدى الناخبين أكبر من كوربين بخصوص التعامل مع قضية بريكتست والاقتصاد، بينما يميل جيريمي كوربين إلى التركيز على القضايا المرتبطة بالصحة. كل هذا يضيف مصداقية على الادعاء بأنه يمكن لحزب المحافظين أن يفوز بأغلبية المقاعد، ومن ثم إقرار مشروع قانون اتفاقية الانسحاب في أوائل عام 2020.

ولكن هذه الاستطلاعات تخفي أيضا الكثير من التحولات الأخرى التي من الممكن أن تحدث لتجعل نتائج الانتخابات العامة لعام 2019 غير متوقعة. أحد هذه التحولات يتعلق بالقيادة. ويشير غودوين ذلك بقوله "بينما يتمتع بوريس جونسون بسمعة قيادية أقوى من جيريمي كوربين، ولكن يتضح أن سياستها أصابها الإعياء، فضلا عن اشتعال العداوات بسبب الأموال والحيل القذرة".

بريكتست الأهم

رغم التحديات التي تحدث عنها براون، يبقى بريكتست أهم النقاط التي تشغل بال البريطانيين عشية الانتخابات التي يصعب إلى حد الآن التنبؤ بنتائجها، وفق دراسة تشاتام هوس، حيث يشير ماثيو غودوين إلى أن تقدم المحافظين بفارق 11 نقطة لا يضمن فوزا مؤكدا.

ويبني جونسون حملته على برنامج شعبي يتهم الاتحاد الأوروبي بالمعارضة بعرقلة إرادة الشعب وخيانة نتيجة استفتاء بقاء بريطانيا ضمن الاتحاد الأوروبي الذي مثل نقطة انطلاق العملية بأكملها؛ فيما يجد حزب العمال صعوبة في تشكيل رسالة متماسكة، حيث تريد بعض أطره التفاوض على صفقة مع الاتحاد الأوروبي، بينما تريد أخرى عقد استفتاء آخر لدراسة رأي البريطانيين الجدد المتعلق بخروج بلادهم من الاتحاد الأوروبي.

وتشير استطلاعات الرأي إلى تواصل رغبة جزء كبير من الناخبين في خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي بعد 3 سنوات من الاستفتاء. وقد يؤدي هذا إلى انتصار مؤيدي الخروج مما يمكن أن يزيد من فرص تحقيق ذلك دون صفقة في سنة 2020.

البلاد أكثر من أي وقت مضى؛ فيما يعلق براون على ذلك بقوله "أوقنا بريكتست في خلاف مع بعضنا البعض أكبر حتى من خلافنا وقت ضريبة الاستطلاع وحرب العراق".

ويشير استطلاع الرأي إلى أن حوالي 67 بالمئة من الناخبين من أصول أفريقية وأسيوية وبقية الأقليات العرقية اعتبروا أن العنصرية أخذت في الازدياد. وقال حوالي 56 بالمئة إنهم تعرضوا لبعض أشكال المضايقات في العام الماضي. وأفاد 70 بالمئة ممن تتراوح أعمارهم بين 18 و24 عاما أنهم يتعرضون للترهيب العنصري على وسائل التواصل الاجتماعي.

لكن الانقسامات "المريرة والمتفاقمة"، وفق تعبير براون، تمتد إلى ما وراء هذه البيئة المعادية وتتخطى المعركة الحالية بين المؤيدين والمعارضين للبريكتست. فالبلاد مقسمة الآن بشكل أكثر حدة بين الشمال والجنوب، وبين الأغنياء والفقراء، وبين الدول الأربع التي ظلت متماسكة وساعدت على تشكيل المملكة المتحدة حتى وقت قريب.

ويضيف براون أنه "في ظل تهديد الحزب القومي الاسكتلندي بزيادة تقسيم حزب المحافظين الذين يكافحون للحفاظ على قوميتهم الإنكليزية بزعمهم أن اسكتلندا ستحكم بريطانيا تحت مظلة حزب العمال، فإن الفضائل والمثل البريطانية العظيمة مثل التسامح والمسؤولية المدنية والتبادلية بين الأمم والدولية البراغمية، ستصبح تاريخا وماضيا على يد سلالة جديدة من القوميين غير المهتمين بإنهاء الانقسامات ولكن باستغلالها بدلا من ذلك".

كما تطرق في مقاله إلى الجدل الدائر حول عدم نشر تقرير من لجنة المخابرات والأمن في البرلمان البريطاني بشأن التدخل الروسي في استفتاء الانفصال، والتحذير من تدخل روسي جديد في انتخابات 2019.

وقال براون "لا نعرف حتى الآن النطاق الكامل للتسلسل الأجنبي إلى وسائل إعلامنا وسياستنا الاجتماعية، لأسباب ليس أقلها أن تقرير لجنة الاستخبارات البرلمانية حول التدخل الروسي في استفتاء عام 2016 تم حجبها

نتائج الانتخابات لن تؤثر

على بريكتست فقط، بل ستؤثر أيضا على السياسة الخارجية والأمنية لبريطانيا، وفي النهاية، على مكانتها في النظام الدولي ككل

يعتبر براون أن رئيس الوزراء البريطاني بوريس جونسون، والمحافظين، أحد أسباب هذه الأزمة، مشيرا إلى أن جونسون، بصعب مهمة بريكتست. ف"من خلال الانفصال عن الاتحاد الأوروبي من دون صفقة، والذي تم بالكاد تجنبه في أكتوبر الماضي، يخطط حزب المحافظين لخلق بريطانيا منعزلة وانعزالية، وكذلك لخلق مجتمع غير منظم وحتى غير متكافئ".

ورغم أن حديث براون، العمالي، لا يمكن فصله عن المناخ الانتخابي التنافسي، إلا أنه يعكس حقيقة المشهد البريطاني اليوم من حيث الحديث عن الانقسام و"سم الشعوبية" الذي يلوث الخطاب العام. ووفقا لاستطلاع رأي أجرته مؤسسة هوب أند هيت، يعتقد 77 بالمئة من البريطانيين الآن أن البريكتست يغذي شعور التعصب ويزيد من انقسام

الفضائل والمثل البريطانية العظيمة مثل التسامح والمسؤولية المدنية والتبادلية

بين الأمم والدولية البراغمية ستصبح تاريخا وماضيا على يد سلالة جديدة من القوميين غير المهتمين بإنهاء الانقسامات ولكن باستغلالها بدلا من ذلك



غوردون براون

الانتخابات تخاطر بتقسيم البلاد بشكل أكبر مع تصاعد الكراهية إلى جانب الشعوبيات المتنافسة

وكما أوضحت دراسة الانتخابات البريطانية، فإن المعدل الحالي لـ"تبديل الأصوات" في السياسة البريطانية لم يسبق له مثيل في تاريخ البلاد المعاصر. وخلال حملات الانتخابات الثلاثة التي أجريت في 2010 و2015 و2017، قام 49 بالمئة من الناخبين بتغيير أصواتهم. هذا التحول اللافت في السياسة البريطانية وتغيير الولاءات الحزبية التقليدية لا يرتبط بالضرورة بصفقة الخروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي. فالتعلق بالأحزاب الرئيسية يضعف منذ الستينات. لكن بريكتست سرع هذه العملية وأعطاه الأسباب التي تجعلها أكثر وضوحا. وكل هذا يجعل من انتخابات ديسمبر 2019، الأهم في تاريخ المملكة المتحدة المعاصر.